

شرح القواعد الأربع

تأليف

محمد بن سعد بن عبد الرحمن الدين

مصدر هذه المادة :

الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com



كتاب الوطء للنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي خلق خلقه أطواراً، وصرفهم في أطوار التخليق
كيف شاء عزة واقتداراً، فأرسل الرسل إلى المكلفين إعذاراً منه
 وإنذاراً، فأتم بهم على من تبع سبيلهم نعمته السابعة، وأقام بهم على
من خالف هجوم حجته البالغة، فنصب الدليل، وأنار السبيل،
وأزاح العلل، وقطع المعاذير، وأقام الحجة وأوضح الحجة .

وأصلى وأسلم على محمد عبده وسوله وأمينه على وحيه،
أرسله رحمة للعالمين، وقدوة للعالمين، وآلها وصحبه وسلم تسليماً
كثيراً .

أما بعد : فإن أولى ما يتنافس به المتنافسون، وأحرى ما
يتسابق فيه المتسابقون، ما كان بسعادة العبد في معاشـه ومعادـه
كفيلاً، وعلى طريق هذه السعادة دليلاً : وذلك العلم النافع،
والعمل الصالح، اللذان لا سعادة للعبد إلا بهما، ولا نجاة له إلا
بالتعليق بسببيهما، فمن رزقهما فقد فاز وغنم، ومن حرمهما فالخـير
كلـه حـرم، وهـما مورـد انقسـام العـبـادـ إلى مـرـحـومـ وـمـحـرـومـ، وبـهـما يـتـميـزـ
الـبـرـ منـ الـفـاجـرـ، وـالـتـقـيـ منـ الـغـويـ، وـالـظـلـامـ منـ الـمـظـلـومـ .

ولما كان العلم للعمل قريناً وشافعاً، وشرفه لشرف معلومـه
تابعـاً : كان أشرف العـلـومـ على الإـطـلاقـ علمـ التـوـحـيدـ ^(١) .

(١) "إعلام الموقعين" لابن القيم (١٤/١٥) .

شرح القواعد الأربع

ولهذا اهتم به العلماء اهتماماً كبيراً، وصنفت فيه المصنفات الكثيرة ما بين مطول ومحضر، وكان من هؤلاء المصنفين الكثيرة ما بين مطول ومحضر، وكان من هؤلاء المصنفين الأماجد : الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - الذي عاش زمناً فيه (انتفضت عرى الإسلام، وعبدت الكواكب والنجوم، وعظمت القبور وُبُنيت عليها المساجد، وعبدت تلك الضرائح والمشاهد .

واعتمد عليها في المهمات دون الصمد الواحد فشمر عن ساعده جده واجتهاده، وأعلن بالنصح لله ولكتابه ورسوله وسائر عباده .

دعا إلى ما دعى إليه الرسل من توحيد الله وعبادته، ونهاهم عن الشرك ووسائله وذرائعه ...^(١) . ولم يأل جهداً في سلوك كل طريق يوصل إلى الحق ومرضاة رب، بالتصنيف والتعليم وبالمكاتبة والراسلة.

ومن جملة مصنفاته " القواعد الأربع " وهو مصنف قليل لفظه، عظيم نفعه، يعالج قضية من أكبر القضايا، إنما فتنة الشرك بالأولياء والصالحين، صاغها المؤلف - رحمه الله - بعلم راسخ ودرائية فائقة، مستقى نبعها كتاب الله، تقى الموحّد هذا الداء العضال الذي فشا، وترشد طالب الحق والمهدى، وتلجم أهل الغي والردى .

وقد يسر الله شرحه مراراً فكان موقع الاستحسان من بعض

(١) الدرر السننية " جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم (١٦١٦) .

الأئحة طلاب العلم، فرأيت إخراجه تعيمياً للفائدة، فأعدت النظر
فيه حذفاً وإضافة حتى استوى على سوقة .

وقد نجحت في هذا الشرح عدم التطويل؟ لبلوغ القصد
بالتوسط والاختصار .

واعتمدت في إثبات المتن المتبع بالشرح - المطبوع ضمن
المجموعة العلمية السعودية عام ١٣٧٤هـ - (ص: ٢٢-٢٥) التي
راجعها وصحّ أصولها على مراجع خطية قدّمة سماحة الشيخ محمد
بن إبراهيم - رحمه الله - .

وختاماً لا يفوتي أنأشكر المشايخ الفضلاء الذين تكرموا
بمراجعة هذا الشرح والإفادة بالملحوظات القيمة وأخص بالشكر
فضيلة الشيفين / الدكتور عبد الله بن محمد الغنيمان، والدكتور
عبد العزيز بن محمد بن على آل عبد اللطيف .

وأسأل الله أن ينفع بهذا الشرح كما نفع بأصله وأن لا يحرمنا من
 الكريم ثوابه، وأن يغفر لنا ولوالدينا ومشايخنا ولمن لهم حق علينا، وأن يعزز
 الإسلام والمسلمين ويذل الشرك والمشركين، إنه سميع قريب .
 وكتبه

محمد بن سعد بن عبد الرحمن الحنين
المدرس بالمعهد العلمي في الشفا بالرياض
ص . ب (١٧٤٣) الرمز البريدي (١١٩٢٤)
Fsh 93@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه أربع القواعد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه
الله.

أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمَ أَنْ يَتَوَلَّكَ فِي الدُّنْيَا
وَالآخِرَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مَبَارِكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِنْ إِذَا
أَعْطَى شُكْرًا، وَإِذَا ابْتَلَى صَبْرًا وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفِرًا، فَإِنْ هَذِهِ
الثَّلَاثَةُ : عَنْوَانُ السَّعَادَةِ .

بدأ الشيخ – رحمه الله – هذه القواعد بالبسملة، لأمرتين :

١ - اقتداءً بكتاب الله تعالى .

٢ - تأسياً بالنبي صلى الله عليه وسلم، فإنه كان يبدأ مكاتباته
بها، فقد جاء في المتفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما
في رسالته إلى هرقل : (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) من محمد عبد الله
ورسوله إلى هرقل عظيم الروم^(١)

قوله : (أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ) :

ثَنَى بِالدُّعَاءِ، كَمَا هُوَ عَادِتُهُ فِي مَصِنْفَاتِهِ، وَهَذَا يَدْلِيلٌ عَلَى حَسْنِ
عَنْايَتِهِ بِالْمُتَعَلِّمِ وَمُحِبَّتِهِ لَهُ، وَالْعَنْايَةُ بِالْمُتَعَلِّمِ أَدْبُرُ جُمِيعِ الْعَالَمِ أَنْ
يَتَحَلَّ بِهِ لَا أَنْ يَكُونَ تَبْلِيغُ الْعِلْمِ هَمَّا يَوْدَعُ أَوْ مَتَاعًا يَوْضَعُ، وَلَقَدْ

(١) " البخاري " (٧) بدء الولي . " مسلم " ١٧٧٣

كانت هذه الخلية جمالاً يتلألأً في أخلاق العلماء السابقين لم يكونوا بحملها مثقلين، ولها مضيغين يقول ابن جماعة الكندي رحمه الله وهو يعدد أدب العالم في درسه : (ينبغي أن يعتني بصالح الطالب، ويعامله بما يعامل به أعز أولاده من الحنف والشفقة عليه، والإحسان إليه، والصبر على حفاء ربما وقع منه، ونقص لا يكاد يخلو الإنسان عنه، وسوء أدب في بعض الأحيان، وي sist عذرها بحسب الإمكان، ويوقفه مع ذلك على ما صدر منه بنصح وتلطف، لا بتعنيف وتعسف، قاصداً بذلك حسن تربيته وتحسين خلقه وإصلاح شأنه ... وأن يتواضع مع الطالب وكل مسترشد سائل إذا قام بما يجب عليه من حقوق الله تعالى وحقوقه، ويخفض له جناحه ويلين له جانبه ...^(١)).

و(الكريم) اسم من أسماء الله الحسنى فإن الله سمى ووصف نفسه بالكرم وأَنَّه الأَكْرَم .

ولفظ الكرم من الألفاظ الجامعة للمحاسن والحمد لا يراد به مجرد الإعطاء بل هو من تمام معناه ؟ فإن الإحسان إلى الغير من تمام المحسن، والكرم كثرة الخير ويسره^(٢) .

ثم إن اسم الكريم والأكرم وما كان في دائرة الأسماء الحسنى كال العلي والأعلى، والقدير والمقدتر، مما اتفق في أصل المعنى وتغاير لفظه لا تعد أسماء واحداً – بل يعد كل واحد منها اسماءً مستقلاً

^(١) آداب السامع والمتكلم (١٤٠-١٥٩) .

^(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٦/٢٩٣) .

بذاته، يقول ابن حجر رحمه الله : (الأسماء المشتقة من صفة واحدة لا يمنع من عدها ؟ فإن فيها التغاير في الجملة فإن بعضها يزيد بخصوصية على الآخر ليست فيه^(١))

قوله : (ربُّ العرش العظيم) :

العرش لغة : السرير الذي للملك .

وأما عرش الرحمن فهو : سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات^(٢) .

وقد وصف العرش بصفات منها : العظمة كما في قوله تعالى : (الله لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم)^(٣)

ووصف العرش بالذكر كما في هذه الآية الكريمة مع أن الله رب كل شيء قيل : لأنه أعظم المخلوقات^(٤) .

ووصف العرش بالمجده كما في قوله تعالى : (ذو العرش المجيد) بكسر الدال صفة للعرش على قراءة حمزة والكسائي .

ووصف بالكرم كما في قوله تعالى : (لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم) .

قوله : "أن يتولاك في الدنيا والآخرة" :

(١) فتح الباري (١٩/١١) .

(٢) شرح الطحاوية ابن أبي العز (٣٦٦)

(٣) النمل : الآية ٢٦ .

(٤) تفسير ابن عطية (١٢/١٠٦) .

(الولي) من أسماء الله الحسنى قال تعالى : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾^(١)

فالله هو الولي . بمعنى أنه يتولى أمور الخلائق وهو مالكهم ومدبر أمرهم .

وله سبحانه ولایة خاصة بعبادة المؤمنين بإخراجهم من الظلمات إلى النور وياعانتهم ونصرهم^(٢) .

قوله : (وَأَن يَجْعَلَكَ مَبَارِكًا أَيْنَما كُنْتَ) :

هذا الدعاء اقتباس من كلام عيسى عليه السلام في المهد، كما أخبر الله عنه في كتابه العزيز آنَّه قال : ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾^(٣) وقد فسرت البركة بتعليم الناس الخير وبالامر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٤)، وغير ذلك من الأقوال ولا تعارض بينها^(٥) .

قوله : (وَأَن يَجْعَلَكَ مِنْ إِذَا أُعْطَى شَكْرًا، وَإِذَا أُبْتَلِيَ صَبَرًا، وَإِذَا

(١) الشورى : الآية ٩ .

(٢) تفسير الأسماء الحسنى . سعيد القطاطي (١١٣-١١٢) .

(٣) مريم : الآية ٣١ .

(٤) تفسير ابن كثير (٣/١٧) .

(٥) الأقوال المختلفة التي تنقل عن السلف في الآية الواحدة غالباً يرجع إلى اختلاف تنويع لا اختلاف تضاد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (الخلاف بين السلف في التفسير قليل وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنويع لا اختلاف تضاد ..) الفتوى (١٣ / ٣١٣) .

أذنب استغفر، فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة) :

هذه الأحوال الثلاثة لا ينفك عنها العبد بل هو دائم التقلب فيها فهو إما أن يكون في نعمة من نعم الله التي لا تختص ففرضه فيها الشكر، وإما أن يكون في حال مصيبة وبلاء ففرضه فيها الصبر، وإما أن يكون مقارفاً لذنب فالواجب عليه التوبة والاستغفار^(١).

(١) "الوايل الصيب" (٥، فيما بعدها).

جاء عند الطبراني مرفوعاً (من أتلىَ فصر وأعطى فشكر، وظلم ففقر، وظلم فاستغفر،
﴿أَوَلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾) (الأنعام : من الآية ٨٢)، الحديث ضعيف جداً، ضعفه الألباني في السلسلة برقم (٤٥٢٧)، وفي الجامع برقم (٥٣٢٣)

(اعلم أرشدك الله لطاعته : أن الحنفية ملة إبراهيم : أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّا
وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١). فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته، فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت، كاحدث إذا دخل في الطهارة، فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدتها وأحطط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار، عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك، لعل الله أن يخلصك من هذه المشكلة، وهي الشرك بالله، الذي قال الله تعالى فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٢) وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها في كتابه) .

قوله : (اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنفية ملة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين) .

(اعلم) : فعل أمر من العلم، وقد اختلف في مدلوله على أقوال فقيل : العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع^(٣) .

كقوله مثلاً : كل المخلوقات لا بد لها من خالق وهو الله سبحانه وتعالى.

(١) الذاريات : الآية ٥٦ .

(٢) النساء : الآية ٤٨ .

(٣) التعريفات للجرجاني (١٥٧) .

فهذا يعد علمًا، لأن هذه الحكم قد صدر حازماً ومطابقاً للواقع.

وقيل: العلم لا يُعرف - ومن ذهب إلى هذا القول ابن العربي المالكي رحمه الله - وعلته في ذلك أن العلم أبین من أن يبيّن^(١).

وكلمة (أعلم) يؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة فالمعنى: كن متاهيًّا لما يلقى إليك من العلوم^(٢).

وأما (الرشد): فهو من المبنى الكريبة والفضائل العظيمة قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلَيْمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقد عرّف بأنه الاستقامة على الحق مع صلابته فيه^(٣).

ثم ما الفرق بين المهدى والرشد؟

ذكر ابن القيم رحمه الله: أن الرشد هو العلم بما ينفع والعمل به.

وأن الرشد والمهدى إذا أفرد أحدهما تضمن الآخر وإذا اقترنَا فالمهدى هو العلم بالحق والرشد والعمل به^(٤).

وأما الطاعة فقد عرفت بأنها موافقة الأمر الديني الشرعي^(٥).

(١) عارضة الأحوazi . (١٠/١١٣-١١٤).

(٢) حاشية الأصول الثلاثة لابن القاسم (٩).

(٣) "فتح القدير" للشوكتاني (٥/٧١).

(٤) "إغاثة اللهفان" (١/٥٣٧).

(٥) "شرح الطحاوية" ابن أبي العز الحنفي (١/٣٣٥).

أي : أن تفعل العبادة على وفق ما أمر الله به^(١) .

فمثلاً : الصلاة لا تكون طاعة إلا إذا فعلت كما أمر الله من الإتيان بشرائطها وأركانها وواجباتها .

قوله : (إن الحنيفة ملة إبراهيم أن تعبد الله مخلصة له الدين) :
اسم الحنيف قد تقرر في القرآن، وقد فرض الله على الناس أن يكونوا حنفاء، فرضه الله على أهل الكتاب ثم على أمّة محمد، وأوجب عليه وعليهم أن يتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً^(٢) . قال سبحانه:
 ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفَهَ نَفْسَهُ﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُوئُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

ولما كانت الحنيفة فرضاً لازماً على المكلفين بينها المصنف رحمة الله بأنها : ملة أبينا إبراهيم عليه السلام .

والملة هي الدين والشرع^(٣) .

فالمعنى : أن الحنيفة هي الطريق الديني الذي صار عليه إبراهيم

(١) " الكوكب المنير " لابن النجاشي (٣٨٥/١) .

(٢) " جامع المسائل " شيخ الإسلام ابن تيمية (١٧٩٥/٥) .

(٣) " أحكام القرآن " للقرطبي (١٣٠/٢) .

عليه السلام، وهو عبادة الله بإخلاص .

والعرب تسمى من عدل عن دين اليهود والنصارى حنيفاً، وهذا يوجد في كتب بعض أهل الكتاب من النصارى وغيرهم وفي كلامهم معاداة الحنيف وهم هؤلاء العرب الذين جمعوا بين الحج والختان فهم مشركون^(١) .

والحنيف مأخوذ من الحنف .

والحنف قيل أصله : الميل، فالحنيف هو المائل عن الأديان الباطلة.

وقيل أصله من الاستقامة وسمى دين إبراهيم عليه السلام بالحنيفية لاستقامته^(٢) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى (الحنيف هو المستقيم إلى ربه دون ما سواه .

والحنيفية هي الاستقامة بإخلاص الدين لله وذلك يتضمن حبه تعالى والذل له لا يشرك به شيئاً^(٣) .

قوله : (إذا عرفت أن الله خلقك لعبادته، فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة) أي : أن التوحيد شرط لصحة العبادة، كما أن

(١) " جامع المسائل " شيخ الإسلام ابن تيمية (١٨٤/٥) .

(٢) تفسير الشوكاني (١٦٠/١) (١٦١) .

(٣) الفتاوى (٤٦٦/١٠)، (٢٣٩/٥) .

الطهارة شرط لصحة الصلاة، والدليل قوله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾^(١) قرن الله الأمر بعبادته بالنهي عن الشرك فدل ذلك على أن التوحيد شرط لصحة العبادة .

ثم إن المصنف - رحمة الله - نفي مسمى العبادة عنها إذا لم تكن خالصة وهي عبادة المشرك لكننا نجد الله سبحانه أطلق لفظ العبادة عليها كما في قوله تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ الآية .

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمة الله - هذه المسألة بياناً يتضح به مراد المصنف حاصله : أن لفظ العبادة جاء في النصوص على وجهين :

١- على وجه الإطلاق :

وحيثند يراد به العبادة المطلقة وهي العبادة المقبولة التي هي من عند الله، وهي العبادة الخالصة، فعلى هذا لا يتناول لفظ بهذا الاعتبار عبادة المشرك كلفظ الإيمان عند الإطلاق لا يتناول إلا الإيمان الحق ولا يتناول إيمان المشركين وهو إقرارهم بتوحيد الربوبية مع شركهم في العبادة .

٣- على وجه التقييد :

لما كان المشرك يعبد الله ويعبد غيره جاز إطلاق لفظ العبادة

(١) النساء : الآية ٣٦ .

عليه مقيداً، فيقال إنه يعبد الله ويعبد غيره، أو يعبد مشركاً وبذلك جاءت النصوص كالأيتين السابقتين وكذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ فـأطلق لفظ العبادة مقيداً عبادتكم مع الله .

ولهذا إذا جاء نفي العبادة عنهم على وجه الإطلاق كقوله تعالى ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ فليس هو نفياً لما قد سمي عبادة على وجه التقيد؛ بل هو نفي للعبادة المطلقة وهي المقبولة التي من عند الله^(١).

فعلم أن مراد المصنف نفي العبادة المطلقة وهي المقبولة التي هي من عند الله ليس نفياً للعبادة على وجه التقيد.

قوله : (إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشَّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا) :

شرع المصنف - رحمه الله - في بيان الأحكام المترتبة على الشرك في العبادة فـبین الحکم الأول وهو فساد العبادة فـمتى خالط الشرك العبادة أفسدها، فـلو أحـرم شخص بالحجـ، ثم استغاث وذبح وندـر لغير الله فـسد حـجه لـقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبْطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وكـذلك لو أن شخصاً تـوضـأ ثم أـشـرك بالله فـسد وضـوءـه، يقول ابن قدامة - رـحـمه الله تعالى - : (الـطـهـارـةـ عـمـلـ وهي باقـيةـ حـكـماًـ تـبـطـلـ بـمـطـلاـتـهاـ،ـ فـيـجـبـ أـنـ تـبـطـطـ بالـشـرـكـ،ـ وـلـأـنـهاـ

(١) الفتـاوـىـ (٥٧٣/١٦)،ـ قالـ الشـيـخـ عبدـ اللهـ الغـنـيمـانـ حـفـظـهـ اللهـ (هـذـاـ التـفـصـيلـ لاـ يـفـيدـ الفـرقـ الـذـيـ أـرـادـهـ الـمـؤـلـفـ،ـ فـالـفـرقـ هـوـ أـنـ الـعـبـادـةـ فـيـ الـلـغـةـ تـلـقـ عـلـىـ كـلـ مـعـبـودـ إـذـاـ قـصـدـ بـذـلـكـ وـلـكـنـ الـعـبـادـةـ فـيـ الشـرـعـ لـاـ تـكـوـنـ عـبـادـةـ إـلـاـ إـذـاـ كـانـتـ تـوـحـيدـاـ،ـ وـهـيـ أـنـ تـكـوـنـ خـاصـةـ لـلـهـ فـهـذـاـ هـوـ الـفـرقـ وـلـيـسـ الـفـرقـ إـلـاـ لـفـاظـ وـالتـقـيـدـ)

عبادة يفسدها الحدث فأفسدها الشرك^(١).

قوله : (وأحبط العمل) :

الْحُبُوط فسره بعض العلماء بالبطلان يقول القاضي عياض رحمه الله : أحبط عملك، وحط عملك، أي : بطل^(٢).

والفاسد والباطل مترادافان في المعنى^(٣)، لكن لما عطف المصنف رحمه الله الحبوط على الفساد وأضاف الضمير العائد إلى العبادة التي خالطها الشرك وأسند العمل – المعرف بالألف واللام الدال على العموم – إلى الحبوط – جعل حبوط العمل هو الحكم الثاني باعتبار أن المراد بالأول فساد العبادة في نفسها، وأن المراد بالحبوط هنا هو حبوط الأعمال الصالحة التي عملها قبل الشرك، وقد دلَّ على هذا قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيْحَبْطَنَ عَمَلُكَ وَلَا تَكُونَنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٤).

يقول المصنف – رحمه الله تعالى – : فإذا (لم يجتنب الشرك فهو كافر، ولو كان من أعبد هذه الأمة : يقوم الليل، ويصوم النهار، قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٥) وتصير عبادته كلها كمن صلٰى ولم يغتسل من الجنابة،

(١) المعنى (٢٣٨/١).

(٢) مشارق الأنوار (٢٢١/١).

(٣) هذا قول الجمهور وذهب الحنفية إلى التفريق بينهما ينظر روضة الناظر لابن قدامة المقدسي (٢٥٣-٢٥٢/١).

(٤) الزمر : ٦٥.

(٥) الأنعام : الآية ٨٨.

أو كمن يصوم في شدة الحر وهو يزني في أيام الصوم^(١).

وقد ذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله - أن حبوط الأعمال على نوعين :

١ - عام: وهو حبوط الحسنات كلها بالردة وحبوط السيئات كلها بالتوبة .

٢ - خاص: وهو حبوط الحسنات والسيئات بعضها ببعض وهو الحبوط الجزئي^(٢).

قوله : (وصار صاحبه من الخالدين في النار) : هذا هو الحكم الثالث من الأحكام المترتبة على جريمة الشرك الأكبر، فإن المشرك إذا مات على شركه من غير توبة، فهو من الخالدين في النار، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرِيمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَا وَأْهَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^(٣).

قوله : (عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك، لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة، وهي : الشرك بالله الذي قال الله تعالى فيه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٤)).

(١) " الدرر السنية " (١٥٩/١) .

(٢) " كتاب الصلاة " لابن القيم (٨٦) .

(٣) المائدة : الآية ٧٢ .

(٤) النساء : الآية ٤٨ .

هذا فيه بيان أهمية هذه القواعد وقد بين المصنف رحمه الله تعالى
أهميةها أيضاً في مواضع أخرى من رسائله وحاصلها :

١- أن معرفة هذه القواعد وفهمها وقاية للموحد من الوقوع
في الشرك .

٢- فيها بيان معنى لا إله إلا الله .

٣- بمعرفتها يتميز الإسلام من الشرك .

يقول المصنف - رحمه الله تعالى - : (فهذه أربع قواعد ذكرها
الله في محكم كتابه، يعرف بها الرجل شهادة أن لا إله إلا الله، ويميز
بها بين المسلمين والمرجعيين، فتدبرها يرحمك الله، واصغ إليها
فهمك فإنها عظيمة النفع) ^(١) .

قوله : (الذي قال الله تعالى فيه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ
بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾) .

هذا أيضاً من الأحكام المترتبة على الشرك الأكبر وهو أن الله لا
يغفر إذا مات صاحبه من غير توبة، أما بقية الكبائر فإن صاحبها
إذا مات من غير توبة فهو تحت المشيئة .

كما دلت عليه هذه الآية الكريمة ^(٢) .

(١) " الدرر السننية " (٢٧/٢) .

(٢) اختلف العلماء هل المراد بالشرك في هذه الآية الكريمة الأكبر أم مطلق الشرك ؟
على قولين . ينظر القول المقيد شرح كتاب التوحيد ابن عثيمين - رحمه
الله - (١١٠/١) .

قوله : (وذلك بمعونة أربع قواعد) :

المعونة هي : إدراك الشيء على ما هو عليه^(١).

والله لا يوصف بأنه عارف - وقد حكى ابن حمدان رحمه الله عن القاضي^(٢) أن ذلك إجماعاً^(٣) - ولكن يوصف الله بأنه عالم قال تعالى : ﴿عَالِمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشَرِّكُونَ﴾ .

وعلة المنع من وصف الله بالمعرفة : أن المعرفة مسبوقة بجهل^(٤) ولأن المعرفة أيضاً تشمل العلم والظن^(٥).

لكن هل يوصف علم الله باليقين ؟ لا يوصف علم الله باليقين

(١) التعريفات للجرجاني (٢١٨) .

(٢) هو أحمد بن حمدان المتوفى سنة ٦٩٥ هـ صاحب الرعايتين والمراد بالقاضي هنا هو أبو على محمد بن الحسين الفراء والخاتمة منذ عصر القاضي أبو يعلى إلى أثناء المائة الثامنة يطلقون لفظ القاضي ويريدون به أبو يعلى .

المدخل لابن بدارن (٢٠٤-٢٠٥) .

(٣) الكوكب المنير (٦٥-٦٦) .

(٤) التعريفات (١٧٢) .

(٥) شرح الأصول من علم الأصول لابن عثيمين (٢٥) . باب الأسماء والصفات مبني على التوقيف والواجب على العبد في هذا الباب وغيره سلوك طريق الحق المتمثل في مذهب سلف الأمة - مذهب أهل السنة والجماعة - قال شيخ الإسلام رحمه الله : (ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تأثيل ...) الفتاوى (٢٦/٥) . وأما باب الإخبار فهو أوسع من باب الصفات يقول ابن القيم رحمه الله : (إن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته كالشيء والموجود والقائم بنفسه فإنه يختر بـه عنه ويدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا) بداع الفوائد (١٦١/١) .

ذكر ذلك ابن القطان رحمه الله؟ وعلل المنع بـأأن اليقين العلم
بالشيء بعد أن لم يكن^(١).

والقواعد : جمع قاعدة، والقاعدة في اللغة : أصل الأُس ..
والقواعد الأساس، وقواعد البيت أساسه^(٢).

أما تعريف القاعدة في اصطلاح العلماء حيث يقولون قاعدة
في هذه المسألة

والقاعدة في هذا الباب كذا فالمراد بها : القضايا الكلية التي
تعرف بالنظر فيها قضايا جزئية^(٣).

مثال ذلك : (من صرف العبادة لغير الله فقد أشرك).

وعلى هذا : فمن ذبح أو نذر أو سجد لغير الله ما حكمه؟
حكمه أنه مشرك كيف عرفنا حكم هذه القضايا الجزئية؟ بالنظر
في القاعدة الكلية السابقة.

قوله : (ذكرها الله في كتابه) : فيه بيان لمصدر هذه القواعد
وهو كتاب الله، وهذا مما تميّز به مؤلفات هذا الإمام أنها مبنية على
الكتاب والسنة.

(١) فتح الرحمن (٢٠).

(٢) "لسان العرب" ابن منظور (٤٣٤/٧).

(٣) "شرح مختصر الروضة" للطوفى (١٢٠/١).

القاعدة الأولى : (أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مُقرُون بأن الله تعالى هو الرازق الخالق المدبر، وأن ذلك لم يدخلهم في الإسلام .

والدليل قوله تعالى : «**فَقُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَشْكُونَ**»^(١) .

١ - معنى القاعدة :

أنَّ الكفار الذين بعث فيهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كانوا من ذرية إسماعيل، وكانت فيهم بقايا من دين إبراهيم عليه السلام، ولذلك لا عجب أنهم كانوا يقررون أن الله خالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم^(٢) لكن هل أدخلهم ذلك الإقرار في دين الإسلام وعصم منهم الدم والمال ؟

بَيْنَ المصنف بالدليل القاطع أنَّ ذلك لم يدخلهم في الإسلام بل حكم الله بكفرهم وأمر نبيه بقتالهم .

٢ - لماذا قرر الإمام هذه القاعدة ؟

^(١) يونس : الآية ٣١ .

^(٢) قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : (.. عامة المشركون بالله يقررون بأنه ليس شريكه مثله بل عامتهم مقررون أن الشريك مملوك له سواء كان ملكاً أو نبياً أو كوكباً أو صنماً ..) التدميرية (١٧٦ - ١٧٧) .

إنَّ المتأمل في الواقع الذي عاصره الإمام وما آل إليه الحال في ذلك الزمان ليدرك سبب تقريره هذه القاعدة، حيث إنَّ كثيراً من العامة المنتسبين إلى الإسلام وقعوا فيما ينافيه؟ بصرف العبادة للمقبورين مع وجود طائفة من العلماء المقىدى بهم قد زينوا الحق في صورة الباطل، والإمام – رحمة الله – لم يكن معزلاً عن هذا الواقع بل كان له الإطلاع التام، الذي كان له أعظم الأثر في معرفة سبب انحرافهم، وهو الجهل بحقيقة التوحيد الذي بعث به النبي صلى الله عليه وسلم حيث أئمَّ يعتقدون أنَّ التوحيد الذي يجب على كل مكلف : هو توحيد الربوبية فقط .. وتصوروا جهلاً أو تقليداً أنَّ معنى شهادة أنَّ لا إله إلا الله هو إثبات أنَّ الله هو الخالق القادر على الانتراع .. ولذا فإنَّ من وقع في بعض المكريات : كالذبح لغير الله، والاستغاثة، ودعاء المخلوقين مما لا يقدر عليه إلا الله، لا يعتبر مرتدًا ما دام أنه يعتقد أنَّ المؤثر في هذا الكون هو الله وحده^(١).

ولذا قرَرَ المصنف هذه القاعدة دفعاً وردًا لهذا الاعتقاد بأنَّ الكفار الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا مقررين بتوحيد الربوبية ولم يدخلهم ذلك في الإسلام .

٣ - وجه الاستدلال بالآية الكريمة للقاعدة، مع ذكر أدلة أخرى:

يمكن تلخيص انحراف عباد القبور في مفهوم التوحيد أنهم ظنوا:

(١) "دعوى المناوئين" عبد العزيز العبد اللطيف (١٩٤-١٩٣) .

أنَّ توحيد الربوبية هو الذي بعث به النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحصلت فيه الخصومة والقتال، وأنَّه تحصل به عصمة الدم والمال في الدنيا والنجاة في الآخرة، وأنَّ معنى لا إله إلا الله هو الإقرار أنَّ الله هو الخالق الرازق المدبر .

وقد ذكر المصنف – رحمه الله – ما ينقض هذا الاعتقاد بالدليل الواضح من القرآن ففي هذه الآية الكريمة على إيجازها البيان الشافي ومحصله في أمرتين :

١ - أنَّ المشركين كانوا مقرئين بأنَّ الله هو خالقهم ورازقهم ومدير أمرهم ولم يدخلهم ذلك في الإسلام، وهذا ما دل عليه الجواب في قوله سبحانه : (فسيقولون الله) أي : راًزقنا ومالك سمعنا وأبصارنا ومحينا ومتينا ومدير أمرنا .

وأما الإقرار بأنَّ الله خالقهم، فقد بينه تعالى بقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقُوكُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ .

٢ - أنَّه لم يحصل بهذا الإقرار النجاة من النار وهذا ما دل عليه ختام الآية حيث إنَّ الله طالبهم بالوقاية من عذابه فلو كانت الوقاية حاصلة بهذا الإقرار لما طالبهم .

يقول ابن جرير – رحمه الله – في قوله تعالى (ليقولن الله) أي : فسوف يحيبونك بأن يقولوا الذي يفعل ذلك كله الله (فقل أفلأ تتقوون) أي: أفلأ تخافون عقاب الله على شرككم ودعائكم ريا غير من هذه الصفة صفتة^(١)

^(١) تفسير ابن حجر (١١٤/٧) .

وأما زعمهم أنَّ معنى لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ لا خالق ولا رازق ولا مدبِّر إِلاَّ اللَّهُ أي : أن معناها بالطابقة^(١) توحيد الربوبية فيسير على كل مسلم وفقه الله تدبر كتابه والنظر في سيرة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته لقومه أن يتبيَّن له بطلان هذا الاعتقاد حيث إنَّ اللَّهَ يَبْيَّنُ معناها في كتابه ولم يكل ببيانها إلى أحد سواه^(٢)، فبَيْنَ أَنَّ معناها نفي وإثبات : نفي للعبودية الحَقَّةُ عما سُوِّيَ اللَّهُ، وإثبات استحقاق العبودية لله وحده، يقول الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنِّي بَرَأَ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِي إِلَيْهِ وَقَوْمِهِ إِنِّي بَرَأَ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِي إِلَيْهِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَّةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٣) .

ما هذه الكلمة التي جعلها الخليل في عقبه وقدم معناها في مخاطبته لقومه من أنها البراءة من كل معبد وإثبات استحقاق العبادة
للله الواحد الموجود ؟

(١) دلالة اللفظ على معناه تنقسم إلى ثلاثة وذلك أنه قصد باللفظ تمام المعنى فمطابقة لتطابق اللفظ والمعنى، وإن قصد به الدلاله على جزء ذلك المعنى لأن ذلك الجزء داخل في ضمن المعنى الموضوع له . وإن قصد به الدلاله على لازم ذلك المعنى فالالتزام . ينظر شرح التونية المراس (١٣٥/٢) . قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله : (ومعنى هذه الكلمة العظيمة شهادة أن لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ لا معبودٌ أَيْ لَا مَالُوهُ بِحَقِّ إِلَهٍ وَحْدَهُ دُونَ كُلِّ مَنْ سُوِّيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْهُنْكَارِ أَبْطَلَ الْبَاطِلِ .. وَسِيقَتْ لِتَوْحِيدِ الْأَلْوَهِيَّةِ مَطَابِقَةً لَا كَمَا يَقُولُ بَعْضُ الْجَهَلَةِ إِنَّ مَعْنَاهَا : لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ إِلَّا اللَّهُ .. فَإِنَّمَا وَإِنْ دَلَّتْ عَلَيْهِ بِطَرِيقِ التَّضَمُّنِ فَهُوَ مَوْضِعَةً لِتَوْحِيدِ الإِلَهِيَّةِ الَّذِي هُوَ إِفْرَادٌ اللَّهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ ..) حاشية ثلاثة الأصول (٥٠) ينظر تيسير العزيز الحميد (٦١/٦٠)

(٢) حاشية الأصول الثلاثة ابن قاسم (٥٣) .

(٣) الزخرف : ٢٦ - ٢٨ .

قال عكرمة ومجاحد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم إنَّ هذه الكلمة – هي لا إله إلا الله – لا يزال في ذريته من يقولها^(١).

وقال ابن كثير – رحمه الله تعالى – هذه الكلمة هي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان وهي لا إله إلا الله^(٢).

وأيضاً ما يبين معنى لا إله إلا الله قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلَهَتَّا لِشَاعِرِ مَجْنُونٍ﴾ ففي هذه الآية الكريمة دليل واضح على أنَّ لا إله إلا الله ليس معناها مطابقة لا خالق ولا رازق ولا مدبِّر إلا الله، وهذا هو الذي فهمه المشركون، حيث إنهم استكبروا عن قولهما، ولو كان معناها ما أقرُّوا به لما استكبروا عن قولهما، إذاً ما الذي فهمه مشركون قريش من هذه الكلمة ؟

هو معناها الحق، وهو ترك ما يعبد من دون الله وإفراد الله بالعبادة وحده، ولذا قالوا : ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلَهَتَّا لِشَاعِرِ مَجْنُونٍ﴾ ففهموا أنَّ معناها ترك الآلة التي يعبدونها من دون الله .

وما يؤكِّد فهمهم لمعناها الحق أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لما دعاهم لقولها « قولوا : لا إله إلا الله » أجابوه بقولهم : (أجعل الآلة إلهاً واحداً إنَّ هذا لشيء عجائب)^(٣)

(١) تفسير ابن كثير (٤/١٢٩).

(٢) المرجع السابق (٤/١٢٩).

(٣) ص : الآية ٥ .

ففهموا أنَّ معناها أن يجعل المعبود إلَهًا واحداً . يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : (أي أَزَعَمْ أَنَّ المعبود واحد لا إله إلا هو ؟ أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأواثان، وأشاربته قلوبهم) ^(١) .

فتبيين بهذه الأدلة القرآنية أنَّ معنى (الإله) في كلمة التوحيد (المعبود) وهذا محل إجماع بين العلماء – رحمة الله – خلافاً لما يعتقده عبَاد القبور من أنَّ معناها لا خالق أو قادر على الانتراع إلا الله، وأنهم إذا قالوا ذلك فقد بلغوا الغاية القصوى في التوحيد مهما فعلوا من عبادة غير الله ^(٢) .

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٢٨) .

(٢) تيسير العزيز الحميد سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب .

خلاصة شرح القاعدة الأولى

١- أن الكفار الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا مقررين بتوحيد الربوبية ولم يدخلهم ذلك في الإسلام ويعصم منهم الدم والمال .

٢- أن عباد القبور يعتقدون أن معنى لا إله إلا الله هو توحيد الربوبية، وأنه يدخل في الإسلام وأنه تحصل به عصمة الدم والمال وهذا باطل بدلالة الكتاب والسنة وإجماع المعتد بهم .

٣- القاعدة الثانية : أنهم يقولون : ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القرابة والشفاعة .

فدليل القرابة قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بِيَنْهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَادِبٌ كَفَّارٌ﴾^(١) .

ودليل الشفاعة قوله تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَصُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هُؤُلَاءِ شَفَاعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية^(٢) . والشفاعة شفاعتان : شفاعة منفية، وشفاعة مشتبة فالشفاعة المنفية : ما كانت تطلب من غير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله، والدليل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا يَبْعِثُ فِيهِ وَلَا خُلْلَةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣) .

والشفاعة المشتبة : هي التي تطلب من الله، والشافع مكرم بالشفاعة، والمشفوع له : من رضي قوله وعمله بعد الإذن، كما قال تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفُعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٤) .

هذه القاعدة تعد من القواعد المهمة؟ لما لها من تعلق بموضوع

(١) الزمر : الآية ٣ .

(٢) يونس : الآية ١٨ .

(٣) البقرة : الآية ٢٥٤ .

(٤) البقرة : الآية ٢٥٥ .

الشفاعة فإن المشركين في قديم الدهر وحديثه إنما وقعوا في الشرك ؟
لتعلقهم بأذيال الشفاعة .

و قبل البدء في بيان معنى القاعدة لا بد من معرفة معنى الشفاعة .

الشفاعة في اللغة : خلاف الوتر وهو الزوج وشفع يقال شفع
شفاعة ويتشفع أي : طلب . والشفع : الشافع والجمع شفاء .
واستشفعه طلب منه الشفاعة^(١) .

وأما في الاصطلاح فقد عُرِّفت بتعاريف منها : التوسط للغير
بجلب منفعة أو دفع مضره^(٢) .

وهذا التعريف جامع لأنّه شامل للشفاعة في الأمور الدينية
والدنيوية^(٣) .

١ - معنى هذه القاعدة :

كانت عبادة الأصنام تعد من أكبر مظاهر الشرك عند العرب
حتى اتّخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه، وكانت بعض
قبائل العرب لها صنم تختص بعبادته فكان لطى وأنعم (يغوثاً)
ولكلب (وداً)^(٤) .

فكيف كان لهذه الأصنام النصيب الوافر من هذه العبادة مع
أنّها لا تعود أن تكون مصنوعة من أحشاب وحجارة ؟

(١) " لسان العرب " لابن منظور (١٨٣/٨ - ١٨٤) .

(٢) " شرح لمحة الاعتقاد " ابن عثيمين (١٢٨) .

(٣) " الشفاعة عند أهل السنة " ناصر الجديع (١٥) .

(٤) سيرة ابن هشام (٩٧/١) .

إن هذه الأصنام حقيقتها أنها موضوعة على شكل معبد
غائب جعلت على شكله وهيئته وصورته ليكون الصنم نائباً مناب
العبود وقائماً مقامه، وإلا فلا يتصور أن عاقلاً ينحت خشبة أو
حجرأً بيده ثم يعتقد أنَّه إلهه ومعبوده^(١).

لكن ما الذي حملهم على عبادتها مع إقرارهم أنها مخلوقة^(٢)
 وأنَّ الله هو خالقهم ومالكهم ومدبر أمرهم وأنَّ الرزق بيده
سبحانه؟

يَبْيَنُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ هُوَ
طَلْبُ الشَّفَاعَةِ مِنْهَا وَأَنْ تَقْرِبُهُمْ إِلَى اللَّهِ زَلْفِي، حِيثُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ
أَبْتُوا الشَّفَاعَةَ لِلْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ صَوَرُوا تَمَاثِيلَهُمْ وَقَالُوا
اسْتَشْفَاعُنَا بِتَمَاثِيلِهِمْ اسْتَشْفَاعُ بِهِمْ^(٣)، وَقَدْ حَكَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْكُفْرِ
وَالشَّرْكِ .

٢ - لماذا قرر الإمام هذه القاعدة؟

قد سبق بيان أن سبب شرك الأولين هو طلب القربى والشفاعة
حتى بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم فيبين أن ذلك كفر وشرك
وتنقض للرب، فجاهدهم في الله حق جهاده حتى تركوا ما عليه
الآباء، وعبدوا الله وحده ولكن لم يقع بالحسبان أن يدور الزمان
ليعود الأمر كما كان فيصبح عباد القبور بالاعتذار عن الشرك في

(١) "إغاثة اللهفان" لابن القيم (١٨١/٢).

(٢) "قاعدة في التوسل والوسيلة" لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣٨).

(٣) المرجع السابق (٣٣).

عبادة الرحمن بما اعتذر به سالفوهم من أهل الأوثان من أفهم لا يريدون إلا الشفاعة والقرب من الله ؟

فقرر الإمام هذه القاعدة ليبيّن أن ذلك عين شرك الأولين .

يقول المصنف - رحمه الله - : (الدعاء الذي يفعل في هذا الزمان أنواع [منها] أن يدعوا الله ويدعوا معه نبياً أو وليناً، ويقول: أريد شفاعته، وإلا فأننا أعلم : ما ينفع ولا يضر إلا الله، ولكن أنا مذنب وأدعو الصالح لعله يشفع لي، فهذا الذي فعله المشركون، وقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يتركوا^(١) .

- بيان وجه الاستدلال بالأياتين الكريمتين للقاعدة :

دَلَّتْ هاتان الآيتان على جملة من الحقائق :

١ - أن صرف العبادة لغير الله طلباً للشفاعة، والقرب من الله هو دين المشركين :

وقد صرَّحَ الله بِهَذَا فِي أُولَى الزَّمَرِ يَقُولُ الْمُصْنَفُ - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : (وَاقْرَأْ أُولَى الزَّمَرِ تَرَاهُ سَبْحَانَهُ يَبْيَنُ دِينَ إِلَسْلَامٍ وَدِينَ الْكُفَّارِ وَمُطْلَبَهُمْ) ^(٢) .

٢ - أن اتخاذ الشفاعة بين العبد وربه شرك وكفر شديد وتنقص رب العالمين، وأن الاعتذار عن ذلك اعتذار كاذب لا يقبل : يدل

(١) " الدرر السننية " (٨٣/٢-٨٤) .

(٢) " الدرر السننية " (١/٦٠) .

لذلك ختام الآيتين الكريمتين، قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١) وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَادِبٌ كَفَّارٌ﴾^(٢).

حيث إنه سبحانه لما بين موجب عبادة الكفار لغيره طلبًا للشفاعة نزَّه نفسه الكريمة فعلم أن هذا الفعل منقصة للرب؛ لأنَّه كلما سبَحَ الرب نفسه كان تنزيهًا عن أن يوصف بشيء من السوء^(٣).

ووصف فعلهم بأنه شرك فمن فعل فعلهم كان من جملة المشركين.

وفي الآية الأخرى وصفه بأنه كفر شديد؟ لأنَّ كفار صيغة مبالغة تدل على أنَّ كفرهم بلغ الغاية^(٤).

ومن شبه عباد القبور في اتخاذ الشفعاء أئمَّا قاسوا الرب تبارك وتعالى على ملوك الأرض فهم لا يسألون مباشرة؛ بل يوسطوا الشفعاء تعظيمًا وتكريرًا لهم فالله أولى بذلك.

جواب هذه الشبهة :

أنَّ هذا محال وممتنع أن يشبه الرب تعالى ويقاس على الملوك والكبار؛ ف بهذه القياس الفاسد عبدت الأصنام واتخذ المشركون من

^(١) يونس : الآية ١٨ .

^(٢) الزمر : الآية ٣ .

^(٣) "شرح الباقيات الصالحات" لشيخ الإسلام (٣٦) .

^(٤) فتح القدير للشوكياني (٤-٥١٥) .

دون الله الشفيع والولي .

وفساد هذا القياس هو وجود الفرق بين المخلوق والخالق والرب والمربوب، والملك والملوك، والغنى والفقير الذي لا حاجة به إلى أحد قط والحتاج إليه من كل وجه، فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم وبهم تقوم مصالحهم وأعوانهم، فقيام أمر الملوك والكباراء بهم فللحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم ويخافون إن لم يقبلوا شفاعتهم أن تنقض طاعتهم لهم، فيذهبون عنهم فلا يجدون بدأً من قبول شفاعتهم فأما الله فهو غني، غناه من لوازم ذاته وما سواه فقير إليه بذاته . قال تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفُعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فأخبر أن حال ملكه للسماءات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده، وأن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه فإنه ليس بشريك بل ملوك محض بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم من بعض^(١) .

ولما وضح المصنف أن شرك الأولين كان سببه طلب الشفاعة : بين أن النصوص دلت على أن الشفاعة على نوعين :

١ - الشفاعة المنافية : وهي التي نفاهما الله تعالى وأثبتتها المشركون ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة^(٢) .

وعرّفها المصنف بأنّها : ما كانت تطلب من غير الله تعالى .

وي يمكن أن تعرّف بأنّها ما احتل فيها شرط من شروط الشفاعة

(١) إغاثة اللهيفان (١/٢٠٣-٢٠٤)، ينظر تفسير السعدي (٧١٨).

(٢) قاعدة في التوسل والوسيلة (٢٠٨) .

المثبتة .

واستدل لها بقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْيَعُ فِيهِ وَلَا خُلْلٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١) .

٢ - الشفاعة المثبتة : وعرفها أنها ما كانت تطلب من الله .

ثم بين رحمة الله أن لها شرطين :

١ - الإذن للشافع .

٢ - الرضى عن المشفوع له، بأن يكون من أهل التوحيد،
ل الحديث أبي هريرة مرفوعاً : « من أسعده الناس بشفاعتك ؟ قال :
من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه »^(٢) .

قوله (والشافع مكرم) : هذا فيه بيان الحكمة من الشفاعة حيث إن الله قادر على إنفاذ ما يحصل بالشفاعة ابتداءً فيقضي بين الخلق ويخرج العصاة ويرفع درجات بعض أهل الجنة من غير شفاعة؛ لكن الله في ذلك الحكمة البالغة فمن ذلك إكرام الشافع وذلك من وجهين :

١ - ظهور فضل الشافع على المشفوع له .

(١) البقرة : الآية ٢٥٢ . احتج بعض أهل البدع من الخوارج والمعترضة بأمثال هذه الآية التي فيها ذكر الشفاعة المنافية على نفي بعض أقسام الشفاعة المثبتة وقد أجاب أهل السنة عن هذه الاحتجاج ينظر " قاعدة في التوسل والوسيلة " (٣١) .

(٢) "فتح الباري" كتاب العلم (٥٢/١) .

٢ - ظهور منزلة الشافع عند الله تعالى^(١) .

وهناك مسألة تتعلق بالشفاعة، وهي : أن من دعا نبياً أو ولياً
يريد منه الشفاعة فقط، فما حكمه؟

يمكن أن نستخلص الجواب من هذه المقدمات الأربع :

١ - أن الشفاعة نوع من الدعاء^(٢) .

٢ - أنها ملك الله جميماً، قال تعالى : ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾^(٣) .

٣ - أنها إذا كانت ملكاً لله فيجب طلبها منه سبحانه .

٤ - أن من دعا غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك .

فالنتيجة : أن طلب الشفاعة من الموتى بالشرك .

يقول العالمة سليمان بن عبد الله : (فإن قلت : إنما حكم
سبحانه وتعالى بالشرك على من عبد الشفاعة، أما من دعاهم
للشفاعة فقط فهو لم يعبدهم، فلا يكون ذلك شركاً .

قيل : مجرد اتخاذ الشفاعة ملزوم للشرك، والشرك لازم له، كما
أن الشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه وتعالى، والتنقص لازم له
ضرورة، شاء أم أبي، وعلى هذا : فالسؤال باطل من أصله لا وجود
له في التاريخ وإنما هو شيء قدره المشركون في أذهانهم، فإن الدعاء

(١) " القول المفيد شرح كتاب التوحيد " لابن عثيمين (٣٤٥-٣٤٦) .

(٢) " الفتاوی (١/٢٠٠) .

(٣) الزمر : الآية ٤٤ .

عبادة، بل هو مخ العبادة، فإن من دعاهم للشفاعة فقد عبدهم وأشرك في عبادة الله، شاء أم أبي^(١).

ويقول الشيخ أحمد بن عيسى - رحمه الله تعالى - : (فقد أخبر تعالى : أن الشفاعة جميعها له، فمن طلبها من غير الله فقد طلبها من لا يملكتها ولا يسمع ولا يستجيب، وفي غير الوقت الذي تقع فيه ولا قدرة له عليها إلا برضاه من هي له، وإن ذنه فيها مقبول، فطلبها من هي له في دار العمل عبادة من جملة العبادات، وصرف ذلك لطلب لغيره : شرك عظيم)^(٢).

(١) "تيسير العزيز الحميد" (٢٣٧).

(٢) "الرد على شبّهات المستعينين بغير الله" (٤٧-٤٨). ينظر الفتاوى (١٦١-١٦٠-٢٤١/١).

خلاصة شرح القاعدة الثانية

- ١- أن صرف العبادة لغير الله طلباً للشفاعة والقرب من الله هو دين المشركين .
- ٢- أن اتخاذ الشفاعة بين العبد وربه شرك وكفر شديد وتنقص رب العالمين .
- ٣- أن ادعاء عباد القبور أئم قصدوا بالشفاعة تعظيم الرب لا يدل على أن ذلك تعظيم بل هو تنقص له فكم من قصد التعظيم لشخص وهو ينقصه .
- ٤- أن الشفاعة في كتاب الله على نوعين، شفاعة منافية وشفاعة مثبتة بشرطها .
- ٥- أن الحكمة من الشفاعة المثبتة إظهار فضل الشافع عند الله وبيان منزلته .
- ٦- أن من دعا نبياً أو ولياً يريد منه الشفاعة فهو مشرك .

القاعدة الثالثة : أن النبي صلى الله عليه وسلم ظهر على أناس متفرقين في عبادتهم : منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الشمس والقمر . وقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفرق بينهم .

والدليل قوله تعالى : ﴿وَقَاتُلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾^(١) .

ودليل الشمس والقمر قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقُوكُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا بِعَبْدِنَا﴾^(٢) .

ودليل الملائكة قوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَسْجُدُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا﴾ الآية^(٣) .

ودليل الأنبياء قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَلَّا تَقُولَ لِلنَّاسِ أَنَّكَ أَنْتَ إِنَّمَّا أَنْتَ إِلَهٌ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية^(٤) .

ودليل الصالحين قوله تعالى : ﴿أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَتَّفَعَّلُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةُ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَبَرِّجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾

(١) الأنفال : الآية ٣٩ .

(٢) فصلت : الآية ٣٧ .

(٣) آل عمران : الآية ٨٠ .

(٤) المائدة : الآية ١١٦ .

الآية^(١).

ودليل الأشجار قوله تعالى : «أَفَرَأَيْتُمُ الْلَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَّا
الثَّالِثَةُ الْأُخْرَى» الآية^(٢) وحديث أبي واقد الليثي - رضي الله عنه
- قال : (خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن
حدثاء عهد بـكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون
بها أسلحتهم، يقال لها : ذات أنواط، فمررنا بـسدرة، فقلنا : يا
رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) الحديث .

١ - معنى هذه القاعدة :

كان معظم العرب اتبعوا دعوة اسماعيل عليه السلام حين
دعاهم إلى دين إبراهيم فكانوا يعبدون الله وحده ويدينون بدینه
حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظاً ما ذكروا به^(٣) فوقعوا في الشرك
فهم في كل واد يهيمون، منهم من يعبد الأصنام التي هي في
حقيقةها عبادة للملائكة والأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد
الأشجار والأحجار حتى بعث الله نبيه المختار وهم على هذه الحال
من المعبودات فأمر نبيه بقتالهم دون تفريق لأن علة القتال محو
الشرك أيًّا كان وجعل الدين للواحد الديان.

٢ - لماذا قرر الإمام هذه القاعدة ؟

(١) الإسراء : الآية ٥٧ .

(٢) النجم : الآية ٢٠-١٩ .

(٣) الرحيق المختوم المباركفوري (٣٩) .

لقد كان الإمام رحمة الله وأتباعه قائمين بأصل الدين وهو توحيده علمًا وعملًا ودعوة مناهضين للمخالفين له من عباد القبور بالحجج البينات من الآيات الكريمة في كفر من عبد الأولياء والصالحين من الأموات، فكان ردهم وجوابهم أنها نزلت فيمن يعبد الأصنام فكيف يجعلون الأنبياء والصالحين أصناماً؟^(١) فقرر المصنف رحمة الله هذه القاعدة؟ ليبين أن العبودات في زمن البعثة كانت مختلفة، لم تكن مقصورة على عبادة الأصنام بل وجد من كان يعبد الملائكة والأنبياء والصالحين، ولم يفرق الله بينهم في الحكم يقول المصنف - رحمة الله تعالى - : (اعلم أرشدك الله : أن الصالحين، ويتبين لك هذا بأربع كلمات).

أفهم يقولون هذا فيمن يتشفع بالأصنام، ونحن نتشفع بالصالحين، فاعرف قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾^(٢) لعلك تفهم جهالة أعداء الله بدين رسول الله^(٣) .

(١) كشف الشبهات (٣٠-٢٩) .

(٢) الإسراء : الآية ٥٧ .

(٣) " الدرر السننية " (١٦٠/١) .

أما مضمون هذه القاعدة فهو أمران :

١ - عموم الأمر بالقتال لكل من عبد غير الله، سواء كان المعبود صنماً، أو ولياً أو شجراً أو حمراً، واستدل بقوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾^(١).

ووجه الاستدلال، أن علة القتال هو جعل الدين لغير الله، وهذا يعم كل من عبد غير الله سواء كان المعبود صنماً أو نبياً أو ولياً أو حمراً.

٢ - أن المعبودات في زمن البعثة كانت مختلفة فمن ذلك : عبادة الشمس والقمر : واستدل لها بقوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقُوكُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا بَعْدُونَ﴾^(٢).

المشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك صنفان :

قوم نوح وقبيلة إبراهيم .

فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهـم، وقبيلة إبراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر^(٣) .

(١) الأنفال : الآية ٣٩ .

(٢) فصلت : الآية ٣٧ .

(٣) قاعدة في التوسل والوسيلة (٣٩) .

ويسمون الصابئة المشركة^(١) كانوا في العراق كما قص الله في سورة الأنعام، ثم ظهر هذا الدين في سبأ حيث عبد الشمس كما بَيَّنَ اللَّهُ فِي سُورَةِ النَّمَلِ .

وكان من أصنام العرب صنم اسمه شمس به سموا (عبد شمس) وكذلك جعلهم شمس من أسماء الآلهة وقد ذكر أن بعض كانة عبدوا القمر^(٢) .

وقد دان بدین الصابئة کثیر من أهل الشام وأهل اليمن وانكسر بتتابع الديانات الجديدة^(٣) وقد نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في وقت طلوع الشمس وغروها منعاً لمشاهدة الكفار وسدًا لذریعة الشرك ؟ لأنَّه أخبر أنها تطلع وتغرب بين قرن شيطان وحيئند يسجد لها الكفار^(٤) .

ومن العبودات في زمانبعثة عبادة الملائكة : واستدل لها بقوله تعالى ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَحَذَّدُوا الْمَلَائِكَةَ وَالْبَيِّنَ أَرْبَابًا﴾^(٥) .

(١) قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (الصابئة أمة كبيرة من الأمم الكبار وقد اختلف الناس فيهم اختلافاً كثيراً وهم منقسمون إلى مؤمن وكافر كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ أَمْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرٌ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} إغاثة اللهفان (٢٠٣/٢) .

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩٩/١١) .

(٣) الرحيق المختوم (٤٦-٤٧) .

(٤) الحديث أخرجه مسلم برقم (٨٣٢) .

(٥) آل عمران : الآية ٨٠ .

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهُؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾^(١).

فالله يسأل الملائكة هل أمروا المشركين بعبادتهم فينزلون الله أن يكون معه إله ويبيتون أن الداعي إلى عبادتهم هم الجن يعنيون لهم الشياطين^(٢).

يخاطبونهم ويعينونهم على أشياء وهم يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة وهم يعبدون الجن في الحقيقة^(٣).

ومن العبودات في زمن البعثة عبادة الأنبياء : واستدل لها بقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرِيمَ أَلَّا تَقُولَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٤).

ومن العبودات أيضاً عبادة الصالحين واستدل لها :

بقوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيْمَنُهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾^(٥).

قال المصنف - رحمه الله تعالى : (قال طائفة من السلف : كان

(١) سبأ : الآية ٤٠-٤١.

(٢) تفسير ابن كثير (٨٦٢/٣).

(٣) قاعدة في التوسل والوسيلة (٣٩).

(٤) المائدة : الآية ١٦.

(٥) الإسراء : الآية ٥٧.

أقوام يدعون المسيح، وعزيراً والملائكة، فقال الله لهم : هؤلاء عبدي كما انتم عبدي، يرجون رحمتي كما ترجونها، ويخافون عذابي كما تخافونه^(١) .

وقد اختلف في عزير، هل هو نبي أم لا ؟

قال ابن كثير - رحمه الله - المشهور أنه نبي من الأنبياء بني إسرائيل وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويعقوب^(٢) .

وبهذا يتبيّن أن هذه الآية الكريمة تتحدث عن عبادة الملائكة والأنبياء، وقد سبق أن بيّن المصنف الدليل على ذلك وإنما ذكرها ليستدل على عبادة المشركين للصالحين، فكيف يتم الاستدلال بها على ذلك ؟

يمكن الاستدلال بها من وجهين :

١ - أن الأنبياء والملائكة هم أصلح الخلق .

٢ - أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي متناولة لكل من عبد من دون الله من يتقرب إلى الله ويرجوه، فيدخل في ذلك الصالحون من غير الأنبياء .

مع أنه قد وجد في زمن البعثة من يعبد الصالحين من البشر من غير الأنبياء، فقد عبدت النصارى أن عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَلَّا تَقُولْتَ لِلنَّاسِ

(١) " الدرر السننية " (١٤٥/١) .

(٢) البداية والنهاية (٤٣/٤٤-٤٥) .

اَتَّخِذُونِي وَأُمِّي اِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ^(١) .

وقد عبد الالات، وكان رجلاً يليل السويق للحجاج، فلما مات عكفوا على قبره^(٢) .

وهذا المعنى ثابت على قراءة التشديد في الآية : (اللات) على قراءة ابن عباس رضي الله عنه .

ومن المعبودات في زمان البعثة عبادة الأشجار والأحجار :

واستدل لها بقوله ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْلَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاءَ التَّالِثَةِ الْأُخْرَى﴾^(٣) . وكانت صخرة يضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ...

أما عبادة الأشجار : فالشاهد لها : أن العزى كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة^(٤) .

وأيضاً دليلاً لعبادة الأشجار من السنة : حديث ذات أنواع وهو ظاهر الدلالة، حيث أن هؤلاء المشركين كانوا يعكفون عند هذه السدرة تبركاً بها .

(١) المائدة : الآية ١١٦ .

(٢) "تفسير القرآن العظيم" (٤/٢٥٥) .

(٣) النجم : الآية ١٩ - ٢٠ .

(٤) المرجع السابق (٤/٤٥٥) .

خلاصة شرح القاعدة الثالثة

- ١- أن العبودات زمن البعثة كانت مختلفة فلم تكن مقصورة على عبادة الأصنام بل عبد الأنبياء والصالحين وغيرهم فعلى هذا تكون الآيات التي نزلت في الشرك على عمومها تتناول كل ما عبد من دون الله ومن جملة ذلك عبادة الصالحين .
- ٢- عموم الأمر بقتال كل من عبد غير الله سواء كان المعبود ملكاً أونبياً أو صالحاً .
- ٣- بطلان مسلك عباد القبور في قصرهم الآيات التي نزلت في الشرك على عبادة الأصنام ليسوغوا بها عبادة الصالحين .

٤ - القاعدة الرابعة : أن مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين : لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، ومشركون زماننا شركهم دائماً في الرخاء والشدة .

والدليل قوله تعالى ﴿إِنَّمَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾^(١) والله أعلم . وصلى الله على محمد وآلها وصحبه وسلم .

١ - معنى هذه القاعدة :

هذه القاعدة في غاية الوضوح والبيان إلا أنها تشير المهموم والأحزان على من ينتسب لدين الإسلام خير الأديان، وكيف أنه فاق شركهم الأولين وأصبح شركهم في كل وقت وحين، أما أولئك فقد كانوا وقت الشدائيد والأهوال يخلصون الدعاء للواحد المتعال .

٢ - لماذا قرر الإمام هذه القاعدة :

ذكر المصنف رحمة الله غرضه ومقصوده بهذه القاعدة في ثناياها حيث أنه يريد تقرير ما بلغ به شرك أهل زمانه وأنه أغلظ من شرك الأولين يقول المصنف - رحمة الله تعالى - : (واعلم أن المشركين في زماننا قد زادوا على الكفار في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم يدعون الملائكة والأولياء والصالحين، ويريدون شفعتهم والتقرب

^(١) العنكبوت : الآية ٦٥ .

إليهم، وأنهم مقرؤون بأن الأمر لله فهم لا يدعونها إلا في الرخاء، فإذا جاءت الشدائـد : أخلصوا الله^(١) .

وقد بيـن المصنف رحمـه الله وـجهـه كـونـهـ شـركـ المـتأـخـرـينـ أغـلـظـ منـ شـركـ الـأـولـينـ وـذـلـكـ منـ وـجـهـينـ :

١ - أن الأولـينـ لا يـشـرـكـونـ ولا يـدـعـونـ المـلـائـكـةـ وـالـأـوليـاءـ وـالـأـوـثـانـ إـلـاـ فيـ حـالـ الرـخـاءـ .

٢ - أن الأولـينـ يـدـعـونـ معـ اللهـ أـنـاسـاـ مـقـرـيـنـ عـنـ الدـلـلـ، إـمـاـ أـنبـيـاءـ وـإـمـاـ أـولـيـاءـ، أـوـ مـلـائـكـةـ، أـوـ يـدـعـونـ أـشـجـارـاـ وـأـحـجـارـاـ مـطـيـعـةـ للـهـ، لـيـسـتـ عـاصـيـةـ، أـمـاـ المـشـرـكـونـ المـتأـخـرـونـ فـإـنـهـمـ يـدـعـونـ معـ اللهـ أـنـاسـاـ مـنـ أـفـسـقـ النـاسـ، وـالـذـينـ يـدـعـونـهـمـ هـمـ الـذـينـ يـحـكـمـونـ عـنـهـمـ الفـجـورـ مـنـ الزـنـاـ وـالـسـرـقـةـ، وـتـرـكـ الصـلـاـةـ....^(٢) .

ثم استدلـ المـصـنـفـ رـحـمـهـ اللهـ عـلـىـ أـنـ المـشـرـكـينـ الـأـولـينـ كـانـواـ يـخـلـصـونـ الـعـبـادـةـ للـهـ وـحـدـهـ فـيـ وـقـتـ الشـدـائـدـ وـالـأـهـوـالـ بـقـوـلـهـ تـعـالـىـ : ﴿فـإـذـا رـكـبـواـ فـيـ الـفـلـكـ دـعـواـ اللـهـ مـخـلـصـيـنـ لـهـ الدـيـنـ فـلـمـاـ نـجـاهـمـ إـلـىـ الـبـرـ إـذـا هـمـ يـشـرـكـونـ﴾ .

يـقـولـ اـبـنـ كـثـيرـ رـحـمـهـ اللهـ تـعـالـىـ : (ـثـمـ أـخـبـرـ تـعـالـىـ عـنـ المـشـرـكـينـ أـنـهـمـ عـنـ الـاضـطـرـارـ يـدـعـونـهـ وـحـدـهـ لـاـ شـرـيكـ لـهـ، فـهـلاـ يـكـونـ هـذـاـ مـنـهـمـ دـائـماـ....ـ).

(١) " الدرر السننية " (٦٧/١) .

(٢) " كـشـفـ الشـبـهـاتـ " (٣٠-٢٩) .

وقد ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبي جهل أنه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ذهب فاراً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها : يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا ينجي منها إلا هو، فقال عكرمة : والله وإن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي في البر أيضاً غيره، ألم لك عهد لأن أخرجت لأذهبن فألاضعن يدك في يد محمد، فلأجدهن رؤوفاً رحيمًا، فكان كذلك ..^(١) .

ومع مضى عصر الإمام وتقادم الزمان وذهاب تلك الصور والأبدان فهل يظن ظان أن هذه العقائد الشركية عندما درج أقوامها^(٢) دفت بموت أصحابها؟ كلا ولا يحتاج الأمر إلى إقامة حجة وإيضاح محة .

فكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل فبزيارة بعض مقابر بلاد أهل الإسلام أو بحضور مولد من موالدهم يتبين لك تعلق القلوب بالأموات ودعائهم عند المدحومات .

إلى الله نشكو غربة الدين والهدى
وفقدانه من بين من راح أو غدا
فعاد غريباً مثلما كان قد بدا
على الدين فليبيكى ذووا العلم والهدى

(١) "تفسير القرآن العظيم" (٤٠٦/٤) .

(٢) يقال : درج القوم إذا انقرضوا . اللسان (٢٦٦/٢) .

هذا حال العامة منهم ولا عجب إن وجد من يزين لهم دين أبي جهل وأبي هب يقول أحدهم : (من تذلل عند قبر نبي أو ولی، وتوسل به، لا يقال إنه عبده من دون الله تعالى، لأن مجرد النداء والاستغاثة والخوف والرجاء لا يسمى عبادة شرعاً، ولو سمى عبادة لغة ...)

وأما الدعاء : فلي sis جميعه عبادة، إلا إذا دعونا من نعتقد فيه صفات الربوبية، أو صفة واحد منها^(١) لهذا قول يقوله مسلم فضلاً أن يقوله من ينتمي إلى زمرة العلماء - التذلل والاستغاثة والخوف والرجاء والدعاء ليست من العبادات الشرعية - ! لا يعلم هذا أن هذه العبادات القلبية هي من أصول الإيمان وقواعد الدين وأصل عمل الجنواح، وهي واجبة على جميع الخلق المأمورين باتفاق أئمة الدين^(٢) قال الله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وقال تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغْيِثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجِبْ لَكُمْ أَنَّيْ مُمِدِّكُمْ بِالْفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ .

وقال تعالى : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وقال تعالى : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَغْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَاسِعِينَ﴾ . وما أصدق

(١) "التنديد بمن عدد التوحيد" (٢٥) .

(٢) "التحفة العراقية في الأعمال القلبية" شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٣-٢٥) .

قول القائل في عباد القبور .

كثيراً ما يضمر الإنسان في نيته أمراً وهو لا يشعر به، وكثيراً ما تشتمل نفسه على عقيدة خفية لا يحس باشتمال نفسه عليها ولا أرى مثلاً لذلك أقرب من الذين يتتجرون في حاجاتهم ومطالبهم إلى سكان القبور، ويتضارعون إليهم تضرعهم للإله المعبود، فإذا عتب عليهم في ذلك عاتب، قالوا : إننا لا نعبدهم، وإنما نتوسل بهم إلى الله، إن أكبر مظهر لألوهية المعبود : أن يقف عباده بين يديه ضارعين خاشعين، يتمسون إمداده ومعونته ولذا فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الأموات من حيث لا يشعرون، إن الله لن يسعد أقواماً [ما داموا] إذا نزلت بهم جائحة، وألمت بهم ملمة، ذكروا الحجر قبل أن يذكروه، ونادوا الجذع قبل أن ينادوه، إنكم تقولون في صباحكم ومسائكم، وغدوكم ورواحكم كل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف .

فهل تعلمون أن السلف الصالح كانوا يجصّرون قيراً، أو يتولّون بضرير؟ وهل تعلمون أن واحداً منهم وقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم، أو قبر أحد من أصحابه وآل بيته ليسأل قضاء حاجة، أو تفريج هم؟ وهل تعلمون أن الرفاعي والدسوقي والجيلاوي والبدوي أكرم عند الله، وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين؟

وهل تعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل : نهى عنها عيناً ولعباً، أم مخافة أن تعيد للمسلمين

جاهليتهم الأولى؟ وأي فرق بين الصور والتماشيل، وبين الأضرحة والقبور^(١)، ما دام كل منها يجر إلى الشرك، ويفسد عقيدة التوحيد^(٢).

(١) الأضرحة والقبور إذا عبدت : تكون أوثاناً لما روى مالك في الموطأ (١٧٢/١) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » الحديث .

(٢) "النطرات" لمصطفى المنفلوطي (٨١/٨٥) .

خلاصة شرح القاعدة الرابعة

- ١ - أن المشركين المتأخرین أشد شرکاً من الأولین .
- ٢ - أن عبادة القبور باقية إلى اليوم يوجد من يزینها ويدعو لها .

وبهذا تم شرح هذه القواعد والحمد لله رب العالمين والصلوة
والسلام على نبينا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين .

٥	المقدمة.....
٨	بسم الله الرحمن الرحيم
القاعدة الأولى: (أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله صلي الله عليه وسلم مُقررون بأن الله تعالى هو الرازق	الخالق المدبر، وأن ذلك لم يدخلهم في الإسلام . ٢٤.....
القاعدة الثانية: أنهم يقولون : ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القرية والشفاعة .. ٣١.....	
القاعدة الثالثة: أن النبي صلي الله عليه وسلم ظهر على	
أناس متفرقين في عبادتهم : منهم من يعبد الملائكة،	
ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد	
الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الشمس والقمر.	
وقاتلهم رسول الله صلي الله عليه وسلم ولم يفرق بينهم... ٤١.....	
القاعدة الرابعة: أن مشركي زماننا أغاظ شركاً من	
الأولين: لأن الأولين يشركون في الرحاء ويخلصون في	
الشدة، ومشرك زماننا شركهم دائمًا في الرحاء والشدة... ٥٠.....	
٥٨.....	الفهـ رسـ